

تأملات في قصة ابني آدم في القرآن الكريم

د. حسن عبد المعتمد بيومي¹

¹ كلية العلوم والآداب بطبرجل، جامعة الجوف، المملكة العربية السعودية

بريد الكتروني: hassanbaiomy@gmail.com

HNSJ, 2023, 4(4); <https://doi.org/10.53796/hnsj4413>

تاريخ القبول: 2023/03/15م

تاريخ النشر: 2023/04/01م

المستخلص

سورة المائدة اعتنت بذكر التشريعات والأحكام ، ولذا فهي تسمى بسورة العقود وتسميتها بالعقود أدل على موضوع السورة ومحورها الرئيسي وهو الوفاء بالعقود والأمر بالوفاء بالعقود افتتحت به السورة وفي أول آية . قال الله تعالى: " يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود الآية " . كما تعرف بسورة الحلال والحرام ، ومع كونها كذلك ؛ فقد جاءت قصة ابني آدم وشيخة الصلوات بما جاء في السورة من قضايا تقرير حرمة الأنفس ، وتشريع أحكام القصاص ، وعقاب المحاربين والسارقين؛ حماية للنفس الإنسانية وصيانة للحقوق وأماناً للفرد والمجتمع . فهي- أي القصة- ترمي إلى أن الاعتداء على النفس أو المال سببه الحسد الذي دفع قابيل أن يقتل أخاه هابيل على ما ذكره كثير من المفسرين من أن القاتل قابيل والمقتول هابيل . ومن هنا تتلمس أهمية الوقوف مع أحداث القصة . فتأمل ؟

وتهدف الدراسة إلى إبراز ربط القصة بالأحكام الشرعية الواردة في سورة المائدة من حيث كونها - أي القصة- ترد تمهيداً لما جاء بعدها من حرمة الدماء وفرضية القصاص ، وجزاء من يحارب الله وسوله والذين آمنوا ويفسدون في الأرض (كقطاع الطريق وللصوص) وكل من يخرج على النظام العام ويهدد أمن وسلامة الأفراد والمجتمعات .. إلخ .

وأن القصة تثبت أن الغيرة والحسد يؤديان إلى الاعتداء ، وأن ذلك يحدث بين أقرب الناس بعضهم لبعض

ولذلك قال الله تعالى عقب ذكر قصة ولدي آدم: ﴿مَنْ أَجَلٌ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعُدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمْ يُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: 32] ، كما تهدف إلى ما تقرر من أن القصة القرآنية ترد للغيرة والاعتاظ وليس لمجرد الذكر والتسلية ، وأن القرآن الكريم في خطابه عن الأمم السابقة وأخبار الماضين ليس كتاب تاريخ وقصص إنما هو كتاب هداية وإرشاد .

وعن منهج الدراسة فقد انتهج البحث المنهج الاستقرائي للقصة من خلال الآيات القرآنية التي عرضت لنا الأحداث وبطريقة موضوعية ، والمنهج التحليلي للوقوف على دلالات وإيحاءات القصة في صورتها القرآنية .

ولم يتناول البحث القصة من خلال كتب التواريخ ، ولا من حكايات وروايات بني إسرائيل مما لا وثوق لنا فيها ولا اطمئنان إلى مصدرها فقد دخلها التحريف والتبديل ، كما عرض عن ذكر تفصيلات وزيادات لا فائدة مرجوة منها .

وقف البحث مع القصة في صورتها القرآنية الحية الباقية أبد الأبدين نقرأها تعبدًا ونعيش في أجوائها مصدقين لها متبعين لما تقرر من أحكامها واقفين مع حكمها السامية الرامية إلى طهارة النفس من مرض الحقد والحسد .

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد

فهذه تأملات في قصة ابني آدم كما وردت في القرآن في سورة المائدة ، وسورة المائدة من السور المدنية والتي اعتنت بذكر التشريعات والأحكام ولذا فهي تسمى بسورة العقود كما تعرف بسورة الحلال والحرام ومع كونها كذلك فقد جاء ذكر خبر ابني آدم في هذه السورة وخبرها بلا شك مرتبط ووشيح الصلات بقضايا تقرير حرمة الأنفس وتشريع أحكام القصاص وعقاب المحاربين والسارقين حماية للنفس الإنسانية وصيانة للحقوق وأماناً للفرد والمجتمع .

كما ترد القصة لتؤكد وترمي إلى أن الاعتداء على النفس أو المال سببه الحسد الذي دفع قابيل أن يقتل أخاه هابيل على ما ذكره المفسرون من أن القاتل قابيل والمقتول هابيل ، وسنورد في البحث تفاصيل هذا الارتباط . وفي كتاب المعجزة للكبرى للشيخ محمد أبو زهرة : أن من صور التصريف البياني بالقصص القرآني بيان بعض الأحكام الشرعية، وأن ذلك يثبت هذه الأحكام ويدعمها.. وفي القصة تكون حكمة شرعيتها قائمة والغاية منها ثابتة.

ويقول عن قصة ابني آدم : هذه القصة تثبت أن الغيرة والحسد يؤديان إلى الاعتداء، وأن ذلك يحدث بين أقرب الناس بعضهم لبعض، وأنه لا علاج للحسد بإخراجه من النفوس، فهو فيها دفين، نعم إنه مرض، ولكنه مرض لا يمكن أن يكون منه شفاء، والناس ليسوا سواء فمنهم شقي وسعيد. وإذا كان الأمر كذلك فلا علاج إلا ببتير من استكن في قلبه الحسد، وصار من شأنه التعدي استجابة له، والاعتبار في النظم لصالح الجماعة لا لصالح الآحاد فقط، ولذلك قال الله تعالى عقب ذكر قصة ولدي آدم: {مَنْ أَجَلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ} [المائدة: 32] . وأنا لنرى هذا القصاص المحكم قد ارتبط فيه الحكم بسببه، فهو في جزء من القصاص ذكر سبحانه ما كان بين الأخ وأخيه من محاربه فطرة الأخوة الرابطة، وأنه حمل نفسه حملاً على ارتكاب جريمته؛ إذ هي مخالفة للطباع السليمة، ولذلك قال سبحانه وتعالى: {فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ} حتى إذا تمت الجريمة رأى بشاعتها في جثة أخيه، فأراد أن يواريه فضلاً، حتى رأى غراباً هو أحنّ على أخيه منه، وهو أعلم كيف يوارى سوءة أخيه. وما كانت أمور الناس لتترك فوضى، يجرم من يجرم ثم يندم، فكانت شريعة القصاص؛ لأن الاعتداء بالقتل اعتداء على حق الحياة في كل إنسان، ومن قتل نفساً بغير حق فهو على استعداد لقتل غيرها، ففي عمله تعريض النفوس الإنسانية لاعتداء المعتدين المفسدين، ومن أحيها بالقصاص من القاتل، فكأنما أحيى الناس أجمعين، كما قال تعالى: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ} [البقرة: 179] . وإن هذا يدل على أن شريعة القصاص شريعة أزلية خالدة باقية، وأنها كانت في الشرائع السابقة، ولم تخل شريعة من شرائع النبيين الكرام منها، ولقد ذكرت بحكمتها ونتيجتها، وهي إحياء للأمة وإهمالها إماتة لها.

ولا شك أن ذلك تصريف بياني قرآني في بيان الأحكام.

مفهوم القصة والمراد بالقصة القرآنية

ولفظة القصة بكسر القاف وجمعها قصص بكسر القاف ، يقال كما قال الفيروزآبادي في البصائر : قص أثره قَصًا وَقَصَصًا، واقتَصَه وتَقَصَّصه: تتبَّعه. وقوله تعالى: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقِصَصِ}، أي: نبين لك أحسن البيان.

والقِصَصُ: جمع قِصَّة، وهي الأمر والشأن، والذي يُكتب، و [القِصَصُ]: الأخبار المتتبِّعة، قال تعالى: {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقِصَصُ الْحَقُّ}. وقال ابن عاشور في مقدمة تفسيره : والقصة : الخبر عن حادثة غائبة عن المخبر بها فليس ما في القرآن من ذكر الأحوال الحاضرة في زمن نزوله قصصا مثل ذكر وقائع المسلمين مع عدوهم . وجمع القصة قصص بكسر القاف وأما القصص بفتح القاف فاسم للخبر المقصوص وهو مصدر سمي به المفعول يقال قص على فلان إذا أخبره بخبر.

والقصة القرآنية إنما ترد في القرآن للعتة والعبرة " والله يقص الحق وهو خير الفاصلين " ، ويقول : "تحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن " ، ولما أورد قصة يوسف ختمها بقوله آخر : لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ " وهذا بيان للغرض من ورود أخبار الأنبياء والسابقين فتأمل ؟ وهو خبر الحق والصدق بعيداً عن افتراءات المفتريين وزيادات المغرضين واختلاق المختلقين ، وفي أول سورة القصص يقول الله : " : نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون " فأبان القرآن أن نبأ القرآن حق بلا مرية ، كما أبان أن الذين ينتفعون به قوم يؤمنون .

يقول ابن عاشور في مقدمة تفسيره عن قصص القرآن : إن في تلك القصص لعبراً جمّة وفوائد للأمة ؛ ولذلك نرى القرآن يأخذ من كل قصة أشرف مواضيعها ويعرض عما عداه ليكون تعرضه للقصص منزهاً عن قصد التفكه بها .

من أجل ذلك كله لم تأت القصص في القرآن متتالية متعاقبة في سورة أو سور كما يكون كتاب تاريخ بل كانت مفرقة موزعة على مقامات تناسبها لأن معظم الفوائد الحاصلة منها لها علاقة بذلك التوزيع هو ذكر وموعظة لأهل الدين فهو بالخطابة أشبه . وللقرآن أسلوب خاص هو الأسلوب المعبر عنه بالتذكير وبالذكر في آيات يأتي تفسيرها؛ فكان أسلوبه قاضياً للوطرين وكان أجلّ من أسلوب القصاصين في سوق القصص لمجرد معرفتها لأن سوقها في مناسباتها يكسبها صفتين : صفة البرهان وصفة التبيان ونجد من مميزات قصص القرآن نسج نظمها على أسلوب الإيجاز ليكون شبهها بالتذكير أقوى من شبهها بالقصص.

القرآن الكريم ليس كتاب تاريخ أو قصص

واعلم أن القرآن ليس كتاب تاريخ وقصص إنما هو كتاب هداية وإرشاد ، وكما يقول الشيخ أبو زهرة رحمه الله عن قصص القرآن : إنه ليس كالروايات القصصية التي تذكر الحوادث المتخيلة أو الواقعة، إنما قصص القرآن وهو قصص لأمر واقعة يساق للعبور وإعطاء المثلات، وبيان مكان الضالين ومنزلة المهتدين، وعاقبة الضلال وعاقبة الهداية، وبيان ما يقاوم به النبيون، ووراءهم كل الدعاة للحق، فهو قصص للعبرة بين الوقائع، لا لمجرد المتعة من الاستماع والقراءة .

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل

المبحث الأول

عرض أحداث القصة كما تحدثت عنها سورة المائدة

قال الله تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ. لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيْ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ. إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ. فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ. فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِي سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾

الآيات 27: 31 من سورة المائدة

المطلب الأول : في مناسبة الآيات لما قبلها

وفي تعلق الآيات بما قبلها يذكر الفخر الرازي وجوهاً :

الأول: أنه تعالى قال فيما تقدم: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ } فذكر تعالى أن الأعداء يريدون إيقاع البلاء والمحنة بهم لكنه تعالى يحفظهم بفضله ويمنع أعداءهم من إيصال الشر إليهم ، ثم إنه تعالى لأجل التسلية وتخفيف هذه الأحوال على القلب ذكر قصصاً كثيرة في أن كل من خصه الله تعالى بالنعمة العظيمة في الدين والدنيا فإن الناس ينازعونه حسداً وبغياً، فذكر أولاً قصة النقباء الاثنى عشر وأخذ الله تعالى الميثاق منهم، ثم إن اليهود نقضوا ذلك الميثاق حتى وقعوا في اللعن والقساوة، وذكر بعده شدة إصرار النصارى على كفرهم وقولهم بالتثليث بعد ظهور الدلائل القاطعة على فساد ما هم عليه، وما ذلك إلا لحسدهم لمحمد صلى الله عليه وسلم فيما آتاه الله من الدين الحق، ثم ذكر بعده قصة موسى في محاربة الجبارين وإصرار قومه على التمرد والعصيان، ثم ذكر بعده قصة ابني آدم وأن أحدهما قتل الآخر حسداً منه على أن الله تعالى قبل قربانه، وكل هذه القصص دالة على أن كل ذي نعمة محسود.

فلما كانت نعم الله على محمد صلى الله عليه وسلم أعظم النعم لا جرم لم يبعد اتفاق الأعداء على استخراج أنواع المكر والكيد في حقه، فكان ذكر هذه القصص تسلية من الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم لما هم قوم من اليهود أن يمكروا به وأن يوقعوا به آفة ومحنة.

والثاني: أن هذا متعلق بقوله: { يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ } وهذه القصة وكيفية إيجاب القصص عليها من أسرار التوراة.

والثالث: أن هذه القصة متعلقة بما قبلها، وهي قصة محاربة الجبارين، أي: اذكر لليهود حديث ابني آدم ليعلموا أن سبيل أسلافهم في الندامة والحسرة الحاصلة بسبب إقدامهم على المعصية كان مثل سبيل ابني آدم في إقدام أحدهما على قتل الآخر . قلت : والوجه الرابع هذا حكاية الطاهر بن عاشور حيث ذكر أن المناسبة بين قصة ابني آدم وبين القصة التي قبلها - أي : قصة قتال الجبارين - مناسبة تماثل ومناسبة تضاد. فأما التماثل فإن في كليتهما عدم الرضا بما حكم الله تعالى: فإن بني إسرائيل عصوا أمر رسولهم إياهم بالدخول إلى الأرض المقدسة وأحد ابني آدم عصى حكم الله تعالى بعدم قبول قربانه لأنه لم يكن من المتقين. وفي كليتهما جرأة على الله بعد المعصية؛ فبنو إسرائيل قالوا: اذهب أنت وربك وابن آدم قال: لأقتلن الذي تقبل الله منه، وأما التضاد

فإن في إحداهما إقداماً مذموماً من ابن آدم وإحجاماً مذموماً من بني إسرائيل وإن في إحداهما اتفاق أخوين هما موسى وأخوه على امتثال أمر الله تعالى وفي الأخرى اختلاف أخوين بالصلاح والفساد (1).

والرابع: قيل هذا متصل بقوله حكاية عن اليهود والنصارى {نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ} أي: لا ينفعهم كونهم من أولاد الأنبياء مع كفرهم كما لم ينتفع ولد آدم عند معصيته بكون أبيه نبياً معظماً عند الله تعالى.

الخامس: لما كفر أهل الكتاب بمحمد صلى الله عليه وسلم حسداً أخبرهم الله تعالى بخبر ابن آدم وأن الحسد أوقعه في سوء العاقبة، والمقصود منه التحذير عن الحسد (2). كما سيأتي تفصيله.

قلت: وهناك وجه سادس، ذكره العلامة أبو السعود وهو: أن يكون هذا عطفاً على مقدر تعلق به قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أذكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ... الآية}، وتعلقه به من حيث: إنه تمهيداً لما سيأتي من جنایات بني إسرائيل بعد ما كُتِبَ عليهم ما كُتِبَ وجاءتهم الرسل بما جاءت به من البيّنات.

قلت: وعندي أن هذا الوجوه: جميعها حسنة ويحتملها السياق إلا أن الوجه الأخير: هو الأوجه لاتساقه مع فحوى السياق ولأنه أعم وأشمل وأكمل الوجوه. ويقرب منه: الوجه الثالث إلا أنه قد خلا من نكتة التعبير بأن قصة ابني آدم هاهنا تجيء تقدمة لما سيذكر بعد من أحكام شرعية تحفظ للمجتمع المسلم سلامه وكيانه.

وبهذا الوجه الأخير وجه الشيخ محمد رشيد رضا، والطاهر بن عاشور وجه ذكر خبر ابني آدم في سياق الآيات هنا على أنه عطف نبأ على نيا ليكون مقدمة للتحذير من قتل النفس والحاربة والسرقة ويتبع بتحريم الخمر وأحكام الوصية وغيرها وليحسن التخلص مما استطرد من الأنبياء والقصص التي هي مواقع عبرة وتنظم كلها في جرائر الغرور (3).

وقصة (ابني آدم) تكشف عن طبيعة الجريمة وبواعثها في النفس البشرية؛ كما تكشف عن بشاعة الجريمة وفجورها وضرورة الوقوف في وجهها والعقاب لفاعلها؛ ومقاومة البواعث التي تحرك النفس للإقدام عليها. فتأمل!

المطلب الثاني في التصوير القرآني للقصة

قوله تعالى (واتل عليهم عليهم نبأ ابني آدم): الظاهر في مرجع الضمير في قوله تعالى {واتل عليهم} (أنه يعود على بني إسرائيل إذ هم المحدث عنهم أولاً، والمقام عليهم الحجج بسبب همهم ببسط أيديهم إلى الرسول، والمؤمنين فاعلموا بما هو في غامض كتبهم الأول التي لا تعلق للرسول بها إلا من جهة الوحي، لتقوم الحجة بذلك عليهم، إذ ذلك من دلائل النبوة (4). وفيه قولان: ذكرهما الرازي: (أحدهما: واتل على الناس. والثاني: واتل على أهل الكتاب) (5).

قلت: ولا يخفى أن الحمل على الأول: أولى لعمومه لأن المشركين وأهل الكتاب كلهم كانوا يحسدون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبغون عليه. وقد مرّ أن من مقصود الخبر تقبيح الحسد ويدخل فيه أهل

(1) التحرير والتنوير: 6/ 168

(2) تفسير مفاتيح الغيب 160/11

(1) التحرير والتنوير 6/ 168

(2) البحر المحيط 3/ 475

(3) تفسير الرازي 160/11: 161

الكتاب وخاصة اليهود دخولاً أولاً حيث إن سياق الآيات قبل نبأ ابني آدم وبعده معهم واختاره شيخ شيوخنا الأستاذ الدكتور محمد السيد طنطاوي رحمه الله تعالى⁽⁶⁾. ويؤيده قول الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: (أي : واقصص على هؤلاء البغاة الحسدة، إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم خبر ابني آدم)⁽⁷⁾. وأيضاً قول الشيبخ محمد رشيد رضا رحمه الله تعالى: (ومعنى الجملة: واتل أيها الرسول على أهل الكتاب وسائر الناس ذلك النبأ العظيم -نبأ ابني آدم- تلاوة متلبسة بالحق مظهرة له، بأن تذكره كما وقع، مبيناً ما فيه من الحكمة والكشف عن غريزة البشر، وهو ما جبلوا عليه من التباين والاختلاف الذي يفضي إلى التحاسد والبغي والقتل، ليعلموا حكمة الله فيما شرعه في الدنيا من عقاب الباغين من الأفراد والجماعات والشعوب والقبائل، وكون هذا البغي من اليهود على رسول الله والمؤمنين ليس من أمر دينهم، وإنما هو من حسدهم وبغيهم، فهم في هذا كابني آدم إذ حسد شرهما خيرهما فبغى عليه فقتله، وكانت عاقبة ذلك ما بينته هذه الآيات)⁽⁸⁾. وقيل: الضمير عائد على هذه الأمة أي: "اتل يا محمد على قومك"⁽⁹⁾. قلت: ولا ريب أن في تلاوة هذا الخبر وغيره من أخبار الماضين على مسامع المؤمنين فيه ما فيه من الاعتبار والاتعاظ لهم فصرف الضمير في (عليهم) من هذه الناحية إلى أصحاب النبي ﷺ وسائر المؤمنين وجيه بل هو الغرض كما أعرب القرآن عنه في ختام سورة يوسف عليه السلام فبعد أن فرغ من ذكر قصته عليه السلام أبان عن القصد فقال: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }.

يقول الأستاذ محمد عزة دروزة في كتابه التفسير الحديث: إن الأسلوب القرآني للقصة يدل بوضوح على أنها جاءت للعظة والتذكير وهو الهدف الجوهرى الذي استهدفه القرآن دائماً في قصصه. قال: ومن أمعن النظر في ما تهدف إليه هذه القصة اتضح له: أنها عامة الشمول لمختلف الأمم وفي مختلف الظروف. وهي "أي القصة" والحالة هذه شاملة لنبى إسرائيل ولغيرهم وبخاصة للمسلمين الذين يجب عليهم اتخاذ ما جاء في القرآن من عظات وتلقينات هدياً لهم ونبراساً. والمراد (بابني آدم) في قول جمهور أهل العلم هما ولدا آدم لصلبه قابيل وهابيل.

يقول الطبري: (أجمع أهل الأخبار والسير والعلم بالتأويل، على أنهما كانا ابني آدم لصلبه، وفي عهد آدم وزمانه لا بني بنيه الذين بعد منه نسبهم)⁽¹⁰⁾. وكذا قال الحافظ ابن كثير وقال: (هو قول غير واحد من السلف والخلف)⁽¹¹⁾.

والقربان: " اسم ما يتقرب به إلى الله من نسيسة أو صدقة أو صلاة"، والغالب: إطلاقه على الذبائح التي يتقرب إلى الله تعالى بذبحها. قال صاحب المنار: (وغلّب عندنا في ذبائح النسك كالأضاحي).

هذا ولمّا لم يبين لنا القرآن الكريم ولا جاءنا عن رسول الله ﷺ من طريق صحيح ماهية هذا القربان الذي

(1) التفسير الوسيط 6/ 155

(2) تفسير ابن كثير 2/ 42

(3) تفسير المنار 6/ 281 وينظر التفسير الوسيط 6/ 155

(4) التفسير الحديث 9/ 98 باختصار وتصرف

(1) تفسير الطبري 10 / 209

(2) تفسير ابن كثير 2/ 42

قرباه، ولا سبب تقريبه، ولا علامة قبوله، ولا من الذي تُقَبَّل منه والذي لم يُتَقَبَّل منه مع أن الذي عليه جمهرة العلماء أن المقبول منه هو هابيل والغير مقبول منه هو قابيل وحمل قابيل على أخيه هابيل فقتله حسداً على مزية القبول إذ لا جدوى لذلك في موقع العبرة وعليه؛ فإن السلامة في الوقوف عندها .

- التحذير من الأخبار الإسرائيلية الموضوعة في القصة

وقد أورد المفسرون في هذا الشأن آثراً -طَوَّلُوا بهاكتبهم- ولا فائدة مرجوة منها ولا طائل تحتها وكلها متلقاة عن أهل الكتاب ولا يصح منها شيء. والحق: "أن النقل عن أهل الكتاب دسياسة دخلت في ديننا" كما قال بذاك العلامة حجة الله الدهلوي في أصول التفسير".

- ملخص القصة لما طول به المفسرون كتبهم

ونوجز هنا ملخصاً لما طول به المفسرون كتبهم لا لتسليم به ولكن لتكن منه على حذر.. كما نذكر تعقيب بعض المحققين من العلماء على هذا. لنخرج من العهدة. والله المستعان وعليه التكلان !!

قيل: "إن هابيل كان صاحب غنم، وقابيل كان صاحب زرع، فقرب كل واحد منهما قرباناً، فطلب هابيل أحسن شاة كانت في غنمه وجعلها قرباناً، وطلب قابيل شر حنطة في زرعه فجعلها قرباناً، ثم تقرب كل واحد بقربانه إلى الله فنزلت نار من السماء فاحتملت قربان هابيل ولم تحمل قربان قابيل، فعلم قابيل أن الله تعالى قبل قربان أخيه ولم يقبل قربانه فحسده وقصد قتله"⁽¹²⁾.

وقيل: "إن آدم عليه السلام كان يولد له في كل بطن غلام وجارية وكان يزوج البنت من بطن الغلام من بطن آخر، فولد له قابيل وتوأمته، وبعدهما هابيل وتوأمته، وكانت توامة قابيل أحسن الناس وجهاً، فأراد آدم أن يزوجه من هابيل، فأبى قابيل ذلك وقال أنا أحق بها، وهو أحق بأخته، وليس هذا من الله تعالى، وإنما هو رأيك، فقال آدم عليه السلام لهما: قربا قرباناً، فأيكما قبل قربانه زوجتها منه، فقبل الله تعالى قربان هابيل بأن أنزل الله تعالى على قربانه ناراً، فقتله قابيل حسداً له"⁽¹³⁾. قلت: يقول صاحب المنار في تعليقه على هذه الأخبار: (وهذه أخبار إسرائيلية اختلفت الروايات فيها عن مفسري السلف بعضها يوافق ما عند اليهود في سفر التكوين وبعضها يخالفه. وليس فيها شيء مرفوع إلى النبي ﷺ يعول عليه)⁽¹⁴⁾.

- الصواب في مدول القصة

وبعيداً عن تلك الأوهام والترهات والأباطيل التي منشأها كما نبهنا إسرائيليات أهل الكتاب نقف مع القصة في

1- الأثر ساقه الطبري في التفسير 10/ 203: 204 من طريق العوفي عن ابن عباس موقوفاً، وساقه أيضاً مختصراً في 10/ 205 من حديث فضيل بن مرزوق عن عطية العوفي موقوفاً عليه، وأورده السيوطي في الدر المنثور 3/ 55: 56 وعزاه لابن جرير من حديث ابن عباس، وابن كثير في التفسير وقال: "رواه ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس" قلت: وعطية العوفي ضعيف جداً في الحديث قال الحافظ الذهبي في المغني في الضعفاء ج2/ص436 "عطية بن سعد العوفي الكوفي تابعي مشهور مجمع على ضعفه" و فضيل بن مرزوق ذكره أيضاً الذهبي في الضعفاء 2/ 115، وابن الجوزي في الضعفاء والمتروكين ج3/ص9 وقال: "فضيل بن مرزوق الرقاشي الكوفي يروي عن عطية. قال الرازي: لا يحتج به. وقال ابن حبان: يخطئ على الثقات ويروي عن عطية الموضوعات".

2- الأثر رواه ابن جرير الطبري 10/ 206: 207، وأورده السيوطي في الدر المنثور ج3/ 55 وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عساكر وقال: إسناده جيد، وأورده ابن كثير من رواية ابن أبي حاتم 2/ 43 وجوّد إسناده أيضاً. والخبر. كما ترى ظاهره أنه من إسرائيليات بني إسرائيل، وقد ذكر نحوه الطبري أيضاً ونص على نسبه إلى بعض أهل العلم بالكتاب الأول 10/ 205، 206. وقد قال شيخ شيوينا أبو شهبه رحمه الله في مثل هذا: "وما جاء عن ابن عباس، ومجاهد وغيرهما، فمرجهه إلى أهل الكتاب الذين أسلموا". وقد أفاد الحافظ ابن كثير في التفسير 1/ 174 وفي غير ما مرّة: (أن غالب من يذكر هذا إنما يأخذه من كتب أهل الكتاب، وهي مما لا يصدق ولا يكذب ولا يعتمد عليها بمجردا، وأما إذا صح حديث في ذلك فعلى الرأس والعين)

3- تفسير المنار 6/ 283

صورتها القرآنية كما وردت ودون بحث في تفصيلات لا وثوق لنا في مصدرها. تذكر الآيات خير ابني آدم {إذ قربا قرباناً} أي: وقت تقربيهما قرباناً يتقربان به إلى الله تعالى. { فتقبل من أحدهما، ولم يتقبل من الآخر } (قال: لأقتلنك).. أي: إن من لم يتقبل منه توعد أخاه وأقسم ليقتلنه فأجاب المتقبل منه . أخاه أحسن جواب وأنفعه: {قال: إنما يتقبل الله من المتقين}. وقد تضمن الجواب بيان سبب القبول وعدمه مع الاعتذار .

يقول الزمخشري: (فإن قلت: كيف كان قوله: {إِنَّمَا يَنْتَقَبِلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} جواباً لقوله: {لَأَقْتُلَنَّكَ}؟ . قلت: لما كان الحسد لأخيه على تقبل قربانه هو الذي حمله على توعدده بالقتل قال له: إنما أتيت من قبل نفسك لانسلاخها من لباس التقوى، لا من قبلي، فلم تقتلني؟ وما لك لا تعاتب نفسك ولا تحملها على تقوى الله التي هي السبب في القبول؟ فأجابه بكلام حكيم مختصر جامع لمعان. وفيه دليل: على أن الله تعالى لا يقبل طاعة إلا من مؤمن متق، فما أعناه على أكثر العاملين أعمالهم⁽¹⁵⁾. ثم انتقل الأخ المتقبل منه من وعظ أخيه وحمله على تقوى الله وتطهير قلبه، إلى تذكيره بحقوق الأخوة من حرمة الدماء وعصمة الأنفس . وما تقتضيه من بر وعفو ولعل في ذلك ما يكسر به شرة⁽¹⁶⁾ الشر الهائج في نفس أخيه الشرير! فقال: {لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك، إني أخاف الله رب العالمين. إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين} .

والمعنى: لئن مددت يدك إلي لتقتلني، فليس من شأني ولا من خلقي أن أفعل هذه الفعلة بالنسبة لك. خوفاً من الله رب العالمين.. وأنا تاركك تحمل ذنب قتلي وتضمه إلى إثمك الذي جعل الله لا يتقبل منك قربانك؛ فيكون إثمك مضاعفاً، وعذابك مضاعفاً.. {وذلك جزاء الظالمين}. فماذا كان من تأثير هذه المواعظ في نفس ذلك الحاسد الظالم؟ وكيف كانت استجابة تلك النفس الأمارة بالسوء بعد هذا التذكير؟ يبين الله جلّ وعزّ ذلك فيقول: { فطوعت له نفسه قتل أخيه، فقتله، فأصبح من الخاسرين } يقول أبو السعود: (ولقد سلك -أي: - الأخ الصالح- في صرفه- "أي: - صرف أخيه الفاسد" عما نواه من الشركل مسلك من العظة والتذكير بالترغيب تارة والترهيب أخرى فما أورثه ذلك إلا الإصرار على الغي والانهماك في الفساد؟)⁽¹⁷⁾. وتحقيق الكلام في معنى قوله تعالى { فطوعت له نفسه... الآية } أن الإنسان إذا تصور من القتل العمد العدوان كونه من أعظم الكبائر فهذا الاعتقاد يصير صارفاً له عن فعله فيكون هذا الفعل كالشيء العاصي المتمرد عليه الذي لا يعطيه بوجه ألبته. فإذا أوردت النفس أنواع وساوسها صار هذا الفعل سهلاً عليه فكأن النفس جعلت بوساوسها العجيبة هذا الفعل كالمطيع له بعد أن كان كالعاصي المتمرد عليه⁽¹⁸⁾.

وهكذا.. طوعت تلك النفس الشريرة لصاحبها الفتل فوقع الجريمة! وقتل من؟ قتل أخيه.. فقتله..!⁽¹⁹⁾. {فأصبح من الخاسرين} . أي: صار من الخاسرين ديناً ودنيا.. ذلك أنه "خسر نفسه" فأوردها موارد الهلاك، "وخسر

1- تفسير الكشاف 658

2- الشرة أي: النشاط والرغبة وهي مصدر لشرّ. كذا في اللسان 4/ 401

1- تفسير أبو السعود 3/ 28

2- أفاده الفخر الرازي في التفسير 11/ 164

3- يقول الشوكاني في فتح القدير 2/ 32: (وقد روي في صفة قتله لأخيه روايات الله أعلم بصحتها)

أخاه" ففقد الناصر والرفيق، "وخسر دنياه" فما تهنأ للقاتل حياة، "وخسر آخرته" فباء يائمه الأول وإثمه الأخير. ومثلت له سواة الجريمة في صورتها الحسية. صورة الجثة التي فارقتها الحياة وباتت لحمياً يسري فيه العفن، فهو سواة لا تطيقها النفوس. وشاءت حكمة الله أن تقفه أمام عجزه - وهو الباطش القاتل الفاتك - عن أن يوارى سواة أخيه! عجزه عن أن يكون كالغراب في أمة الطير! قال تعالى: { فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يوارى سواة أخيه. قال: يا ويلتا! أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سواة أخي؟ فأصبح من النادمين } .

لما كان هذا القتل أول قتل وقع من بني آدم، ولما كان النوع البشري موكولاً في عامة أعماله إلى كسبه واختياره لم يعرف القاتل الأول كيف يوارى جثة أخيه المقتول التي يسوؤه أن يراها هكذا بارزة فالسوءة: "ما يسوء ظهوره"، ورؤية جسد الميت ولا سيما المقتول يسوء كل من ينظر إليه ويوحشه.

فعندئذ { فبعث الله تعالى غراباً } أي: ألهم الله غراباً ينزل إلى المكان الذي هو فيه بحيث يراه { يبحث في الأرض } فبحث في الأرض، أي: حفر برجليه فيها يفتش عن شيء، والمعهود أن الطير تفعل ذلك لطلب الطعام . { ليريه كيف يوارى سواة أخيه } . قال أبو مسلم (20): (عادة الغراب دفن الأشياء فجاء غراب فدفن شيئاً فتعلم ذلك منه) (21). وكذا أورده صاحب المنار وعزاه لأبي مسلم وقال: (هذا قريب) (22).

وقال ابن عاشور: (وكأن اختيار الغراب لهذا العمل إما لأنّ الدفن حيلة في الغراب من قبل، وإما لأنّ الله اختاره لذلك لمناسبة ما يعتري الناظر إلى سواد لونه من الانقباض بما للأسيف الخاسر من انقباض النفس) (23).

والمتبادر من قوله { يبحث في الأرض } : أن الغراب أطل البحث في الأرض، لأنه قال: " يبحث" ولم يقل: " بحث". والمضارع يفيد الاستمرار. فلما أطل البحث أحدث حفرة في الأرض، ويصح أن يكون التعبير بالمضارع: لاستحضار الصورة في ذهن المخاطبين وهو المقصود. فافهم. فلما رأى القاتل الحفرة - وهو متحير في أمر مواراة سواة أخيه - زالت الحيرة واهتدى إلى ما يطلب، وهو دفن أخيه في حفرة من الأرض. وهكذا.. أعلمنا الله تعالى أن القاتل الأول: تعلم دفن أخيه في التراب من الغراب. ولما بان له من ضعفه و جهله ما كان غافلاً عنه قال متحسراً على حاله: {قال: يا ويلتا! أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سواة أخي؟ فأصبح من النادمين} قال أبو السعود: (هذا استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ من سوق الكلام كأنه قيل: فماذا قال عند مشاهدة حال الغراب؟ فقيل: قال: {يا ويلتي} وهي كلمة جَزَعٍ وتحسّرٍ والألفُ " بدلٌ من ياء المتكلم والمعنى "يا ويلتي احضري فهذا أوانك"، والويلُّ والويلَّةُ الهلْكةُ {أعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ} أي: عن أن أكون {مِثْلَ هذا الغرابِ فأوَارِي سَوَاءَ أَخِي} تعجبٌ من عدم اهتدائه إلى ما اهتدى إليه الغرابُ. {فأصبح من النادمين} (24).

1- (أبو مسلم) ترجم له الداودي في طبقات المفسرين ج1/ص 98 فقال: (محمد بن علي بن محمد بن الحسين.. أبو مسلم الأصبهاني الأديب المفسر النحوي المعتزلي كان عارفاً بالتفسير والنحو والأدب غالباً في مذهب الاعتزال صنف التفسير في عشرين مجلداً...ومات في جمادى الآخرة سنة تسع وخمسين وأربعمائة ومولده سنة ست وستين وثلاثمائة) قلت: أصبهان مدينة شهيرة من مدن فارس . إيران حالياً . وتدعى أيضاً أصفهان وإليها ينسب عدد كثير من أهل العلم منهم الراغب الأصفهاني صاحب المفردات، وأبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني، والحافظ الكبير أبو بكر بن مردويه المفسر

2- أورده الرازي عن أبي مسلم الأصبهاني 11 / 165

3- تفسير المنار 6 / 286

4- التحرير والتنوير 6 / 173

1- تفسير أبو السعود 3 / 28

والظاهر: أن ندمه لم يكن ندم التوبة -والإقبال لله توبته- وإنما كان الندم: الناشئ من عدم جدوى فعلته، وما أعقبته له من تعب وعناء وقلق. وبهذا أجاب الرازي رحمه الله تعالى عن ما أشكل على قوله (فأصبح من الندامين) من قولهم: "لما كان من الندامين كان من التائبين فلم لم تقبل توبته؟" وقد قال ﷺ: "الندم توبة"⁽²⁵⁾. قال: (إنه صار من الندامين على قتل أخيه لأنه لم ينتفع بقتله وسخط عليه بسببه أبوه وإخوته فكان ندمه لأجل هذه الأسباب لا لكونه معصية، أو أن ندمه كان لأجل أنه تركه بالعرآء استخفافاً به بعد قتله فلما رأى أن الغراب لما قتل الغراب دفنه ندم على قساوة قلبه وقال هذا أخي وشقيقي ولحمه مختلط بلحمي ودمه مختلط بدمي فإذا ظهرت الشفقة من الغراب على الغراب ولم تظهر مني على أخي كنت دون الغراب في الرحمة والأخلاق الحميدة فكان ندمه لهذه الأسباب لا لأجل الخوف من الله تعالى فلا جرم لم ينفعه ذلك الندم)⁽²⁶⁾.

المبحث الثاني

العبر والدروس المستفادة من خبر ابني آدم في القرآن

المطلب الأول : في ذم الحسد وبيان سوء عاقبته

من تأمل في القصة بان له الكثير من الدروس والعبر ومن نظر في العرض الذي عرضنا به القصة في ضوء منهج التصوير الذي نسلكه في بحثنا يلمح بعض تلك الدروس والعبر! وقد مرّ أن القصد من قصّ القصص: هو الاعتبار والادكار! فاعتبروا يا أولي الأبصار؟ وقد رأينا هاهنا أن نبرز بجلاء: أهم تلك الدروس في حياة المجتمع المسلم فنقول وبالله والتوفيق ومنه العون والسداد:

إن العبرة في قصة ابني آدم تكمن في إبراز قبح وذم الحسد وبيان سوء عاقبته وآثاره الوخيمة ، وقد رأينا كيف قتل الأخ أخاه بغياً وعدواناً وحسداً له لما وهبه الله وأعطاه؟ وكيف قضى الحسد الخبيث والحقد الكائن في النفس الخبيثة على رابطة الأخوة وشيجة الحب التي تجمع بين الأخوين؟ وكيف أدى هذا الداء الفاسد في النفس الإنسانية إلى إراقة وإسالة الدماء الذكية؟

يقول الشيخ محمد رشيد رضا: (وأكبر العبر في قصة ابني آدم: أنها تدلنا على أن الحسد: كان مثار أول جناية في البشر، ولا يزال هو الذي يفسد على الناس أمر اجتماعهم من اجتماع العشيرة في الدار إلى اجتماع القبيلة، إلى اجتماع الدولة. فترى الحاسد تثقل عليه نعمة الله على أخيه في النسب أو الجنس أو الدين وهو لم يتعرض لمثلها لينالها، فيبغى على أخيه ولو بما فيه شقاؤه هـ، وأكبر الموانع لارتقاء المسلمين الآن هو الحسد والعياذ بالله تعالى من أهله لعنة الله عليهم، لأن الأمم لا ترتقي إلا بنهوض المصلحين بها، وكلما قام فينا مصلح تصدى الحاسدون لإحباط عمله)⁽²⁷⁾.

2- الحديث رواه أحمد في المسند من حديث ابن مسعود 1/ 376 والبخاري في تاريخه 3/ 373، 8/ 51، ورواه ابن ماجة في السنن 2/ 1420، وابن حبان في صحيحه 2/ 376: 379 باب التوبة" ذكر الخبر الدال على أن الندم توبة" والحاكم وصححه 4/ 271: 272 وأورده السيوطي في الجامع الصغير. كما في التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي 2/ 464 وقال: "إسناده صحيح".

3- مفاتيح الغيب 11/ 166، وراجع تفسير المنار 6/ 286: 287

1- تفسير المنار 6/ 290، وانظر تفسير أحمد مصطفى المراعي 6/ 103

1- حقيقة الحسد

يقول الحافظ ابن حجر: (الحسد تمّي الشّخص زوال النّعمة عن مستحقّ لها أعمّ من أن يسعى في ذلك أولاً، فإن سعى كان باغياً، وإن لم يسع في ذلك ولا أظهره ولا تسبّب في تأكيد أسباب الكراهة التي نهي المسلم عنها في حقّ المسلم نظراً: فإن كان المانع له من ذلك العجز بحيث لو تمكّن لفعل فهذا مأزور، وإن كان المانع له من ذلك التقوى فقد يُعذر لأنّه لا يستطيع دفع الخواطر النفسانية فيكفيه في مجاهدتها أن لا يعمل بها ولا يعزم على العمل بها، وقد أخرج عبد الرزاق عن معمر عن إسماعيل بن أمية رفةً ثلاث لا يسلم منها أحد: الطيرة والظنّ والحسد. قيل: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: إذا تطيّرت فلا ترجع، وإذا ظننت فلا تحقّق، وإذا حسدت فلا تنبع" (28).

وعن الحسن البصري قال: "ما من آدمي إلا وفيه الحسد. فمن لم يجاوز ذلك إلى البغي والظلم لم يتبعه منه شيء" (29).

2- وفي بيان تحقيق حقيقة الحسد وأحوال الحاسد

يقول العلامة السفاريني (30): (اعلم رحمك الله تعالى أن الحسد لا يكون إلا على نعمة. ومتى أنعم الله على عبد نعمة فأحبّ أحد أن يكون له مثلها من غير أن تزول عن المحسود، فذلك الحسد يسمى غبطةً ولا نوم فيه ولا دم وإن أحبّ زوالها عن المحسود فهذا الحسد المذموم، وصاحبُه الملوّم الظلوم. ثم إن هذا الحاسد تارة يحبّ زوال النعمة عن المحسود ومحبّتها إليه، وهذا قبيح. لأنّه إثار في ضمنه اعتراض وأقبح منه طلب زوالها عن المحسود، وحصولها إلى غيره، وأقبح منهما طلب زوالها مطلقاً، فهذا عدو نعم الله تعالى) (31).

3- الفرق بين الحسد والغبطة

الغبطة: تمّي المرء أن يكون له نظير ما لآخر من غير أن يزول عنه، والحِرص على هذا يُسمّى منافسة،

1- الحديث: أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من طريق عبد الرزاق عن معمر عن إسماعيل بن أمية مرفوعاً 63 / 2 وقال: هذا منقطع وأورده المتقي الهندي في كنز العمال 25 / 16 وعزه للبيهقي نحوه أيضاً في الشعب 25 / 16 عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً، ونحوه عند الطبراني في الكبير ج3/ص228 من حديث خارثة بن النعمان قال: قال رسول الله ﷺ " ثلاث لازمات لأمتي الطيرة والحسد وسوء الظن فقال رجل ما يذهبهن يا رسول الله ممن هو فيه قال إذا حسدت فاستغفر الله وإذا ظننت فلا تحقّق وإذا تطيّرت فأمض" وأورده الهيثمي في المجمع 8 / 8 وقال: رواه الطبراني وفيه إسماعيل بن قيس الأنصاري وهو ضعيف"

2- فتح الباري 10 / 482

3- (السفاريني) (1114 - 1188هـ = 1702 - 1774م) محمد بن أحمد بن سالم السفاريني، شمس الدين، أبو العون عالم بالحديث والأصول والأدب، محقق. ولد في سفارين (من قرى نابلس) -فلسطين- ورحل إلى دمشق فأخذ عن لمانها. وعاد إلى نابلس فدرس وأفتى، وتوفي فيها له من التصانيف "البحر الزاخرة عن علوم الآخرة" "تحرير الوفا في سيرة المصطفى ﷺ" "تحفة النساك في فضل السواك" "الدرر المصنوعات في الأحاديث الموضوعات" "غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب" وغيرها. راجع ترجمته في (هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين لاسماعيل باشا البغدادي ج6/ص340)، (والأعلام للزركلي ج4/ص142)، (وإيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون - وهو أيضاً - للعالم الأديب الفاضل اسماعيل باشا البغدادي ج4/ص142)

1- غذاء الألباب شرح منظومة الألباب 2 / 221 دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - 1423 هـ - 2002 م الطبعة: الثانية تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي

فَإِنْ كَانَ فِي الطَّاعَةِ فَهُوَ مَحْمُودٌ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى (فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) (32). وَإِنْ كَانَ فِي الْمَعْصِيَةِ فَهُوَ مَذْمُومٌ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ

"وَلَا تَنَافَسُوا" (33). وَإِنْ كَانَ فِي الْجَائِزَاتِ فَهُوَ مُبَاحٌ. وَقَدْ أَطْلَقَ عَلَى الْغِبْطَةِ حَسْداً بِطَرِيقِ الْمَجَازِ فِي قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: "لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَ عَلَى هَلَكْتِهِ فِي الْحَقِّ وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا" (34).

قال النووي: (قوله ﷺ: (لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ) قَالَ الْعُلَمَاءُ: الْحَسَدُ قِسْمَانِ: حَقِيقِيٍّ وَمَجَازِيٍّ. فَالْحَقِيقِيُّ: تَمَنَّى زَوَالَ النِّعْمَةِ عَن صَاحِبِهَا، وَهَذَا حَرَامٌ بِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ مَعَ النَّصُوصِ الصَّحِيحَةِ. وَأَمَّا الْمَجَازِيُّ: فَهُوَ الْغِبْطَةُ وَهُوَ أَنْ يَتَمَنَّى مِثْلَ النِّعْمَةِ الَّتِي عَلَى غَيْرِهِ مِنْ غَيْرِ زَوَالِهَا عَن صَاحِبِهَا. قَالَ: وَالْمُرَادُ بِالْحَدِيثِ: لَا غِبْطَةَ مَحْبُوبَةٍ إِلَّا فِي هَاتَيْنِ الْخَصْلَتَيْنِ وَمَا فِي مَعْنَاهُمَا" (35). وفي ذم الحسد يقول الماوردي: (اعْلَمْ أَنَّ الْحَسَدَ خُلِقَ ذَمِيمٌ مَعَ إِضْرَارِهِ بِالْبَدَنِ وَفَسَادِهِ لِلدِّينِ، حَتَّى لَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِالِاسْتِعَادَةِ مِنْ شَرِّهِ، فَقَالَ تَعَالَى: {وَمَنْ شَرَّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ} (36) وَنَاهَيْكَ بِحَالِ ذَلِكَ شَرًّا) (37). وقد أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن الحسن في قوله تعالى {ومن شر حاسد إذا حسد} قال: "هو أول ذنب كان في السماء" (38). ويقول القرطبي: (الحسد أول ذنب عصي الله به في السماء وأول ذنب عصي به في الأرض فأما في السماء فحسد إبليس لآدم وأما في الأرض فحسد قابيل لهابيل) (39). حسد إبليس عليه اللعنة سيدنا آدم عليه السلام على ما آتاه الله من الكرامات من خلقه بيديه، وأمر الملائكة بالسجود له، فحمله الحسد على التكبر، ومنعه التكبر من امتثال الأمر بالسجود، فكانت النتيجة طرده وإبعاده من رحمة الله تعالى إلى يوم الدين (40). وحسد أحد ابني آدم أخاه فقتله، فكان الحسد بذاك سبب أول جريمة

2- سورة المطففين جزء من آية 26

3- روى مسلم في صحيحه ج4/ص1986 كتاب البر والصلة والآداب باب "تخريم الظنِّ والتَّجَسُّسِ والتَّنَافُسِ والتَّجَاشِ ونحوها" من حديث أبي هريرة عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ « لَا تَبَاغَضُوا وَلَا تَبَايَرُوا وَلَا تَنَافَسُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا ».

4- الحديث رواه البخاري في الصحيح من حديث ابن مسعود كتاب العلم باب "الإغْتِيَاظُ فِي الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ وَقَالَ عُمَرُ تَقَهُهُوا قَبْلَ أَنْ تُسَوِّدُوا" ج1/ص39 حديث 73 وفي غير ما موضع، وانظر فتح الباري لابن حجر 1/166 بتصرف

5- شرح النووي على صحيح مسلم 6/97

6- سورة الفلق آية 5

7- أدب الدنيا والدنيا للماوردي 333

1- شعب الإيمان للبيهقي ج5/ص273 والأثر أورده السيوطي في الدر المنثور 8/690 وعزاه لابن عدي في الكامل، والبيهقي في شعب الإيمان.

2- تفسير القرطبي 5/251 وذكره غير واحد كابي حامد الغزالي في الإحياء 3/188، والماوردي في أدب الدنيا والدين 333 وابن حجر الهيثمي في الزواجر 1/101 وقال: "هو قول بعض السلف" والأثر أسنده" أبو بكر أحمد بن مروان بن محمد الدينوري القاضي المالكي" في كتابه" المجالسة وجواهر العلم" إلى ابن عيينة أثر رقم 656 ص 144

3- قلت: ذكره بنحو العلامة ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم 327، وانظر أضواء البيان للشيخ الشنقيطي 9/164: 165 وفي شأن صنيع إبليس عليه اللعنة وحكم العلي القدير عليه باللعن والإبعاد يقول القرآن الكريم: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ فَلَئِنْ عَلِمْتُ مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَارْجِعْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنْ عَلَيَّ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ } سورة ص الآيات 71: 78

وقعت في الدنيا! يقول أبو حامد الغزالي: (حُكي أن عون بن عبد الله⁽⁴¹⁾ دخل على المفضل بن المهلب⁽⁴²⁾ وكان يومئذ على واسط⁽⁴³⁾ فقال: إني أريد أن أعظك بشيء فقال: وما هو؟ قال: "إياك والكبر فإنه أول ذنب عصي الله به" ثم قرأ {وَإِذ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ} {44}، و"إياك والحرص فإنه أخرج آدم من الجنة أمكنه الله سبحانه من جنة عرضها السموات والأرض يأكل منها إلا شجرة واحدة نهاه عنها فأكل منها فأخرجه الله تعالى منها" ثم قرأ {اهبطوا منها...} {45} إلى آخر الآية، و"إياك والحسد فإنما قتل ابن آدم أخاه حين حسده"

ثم قرأ {واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق...} {الآيات} {46}. ويروى عن ابن عمر: (أن إبليس قال لنوح: اثنتان بهما أهلك بني آدم: الحسد، وبالْحسد لُعنْتُ وجُعِلْتُ شيطاناً رجيماً. والحرص، وبالحرص أُبِيحَ آدمُ الجنةَ كُلَّهَا، فأصِبتُ حاجتي منه بالحرص) {47}. وقد نهى النبي ﷺ عن الحسد وحذّر منه تحذيراً شديداً فقال: " لا تَحَاسَدُوا ولا تَبَاغَضُوا ولا تَقَاطَعُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا" {48}.

4- الحسد من سمات يهود

وقد وصف الله اليهود بالحسد في مواضع من كتابه القرآن كقوله تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ} - سورة البقرة الآية 109 - وقوله تعالى {أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مَلَكًا عَظِيمًا} - سورة الأنعام الآية 54 - وفي هذا الإخبار: تحذير للمؤمنين عن الوقوع في هذا السلوك الفاسد الخبيث الذي ذم القرآن اليهود عليه! والحسد الذي أصاب اليهود والذي فاضت به نفوسهم تجاه الإسلام والمسلمين، وما زالت تفيض هو الذي انبعثت منه دسائسهم وتدابيراتهم كلها وما تزال. وهو الذي يكشفه القرآن للمسلمين ليعرفوه ويعرفوا أنه السبب الكامن وراء كل جهود اليهود لزعزعة العقيدة في نفوسهم؛ وردهم بعد ذلك إلى الكفر الذي كانوا فيه، والذي أنقذهم الله منه بالإيمان، وخصهم بهذا بأعظم الفضل وأجل النعمة التي تحسدهم عليها

4- قلت: ترجم الحافظ الذهبي في سير أعلام النبلاء 5/ 103 "لعون" فقال: (عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الإمام القدوة العابد أبو عبد الله الهذلي الكوفي حدث عن أبيه وأخيه وابن المسيب وابن عباس وعبد الله بن عمرو وطائفة... توفي سنة بضع عشرة ومئة) وترجم له أيضاً ابن الجوزي في صفوة الصفوة 3/ 100: 104 وذكر طرفاً مما أثر عنه من أقوال في الزهد والرقائق.

5- المفضل بن المهلب: (كما في الأعلام للزركلي 7/ 280 هو: ابن أبي صفرة الأردني، أبو غسان: وال، من أبطال العرب ووجهائهم في عصره. كانت إقامته في البصرة.. وولاه الحجاج خراسان (سنة 85 هـ) فمكث سبعة أشهر.. وولاه سليمان بن عبد الملك جند فلسطين) قلت: وفي الكامل لابن الأثير 4/ 339: 346 خبر مضيه إلى "واسط" ضمن طرف من أخباره هو وأخيه يزيد بن المهلب..، ومات المفضل في سنة اثنتين ومائة من الهجرة.

6- واسط: مدينة شهيرة من مدن العراق، وقد بناها الحجاج بن يوسف الثقفي، أمير العراق آنذاك، ولذلك تسمى "بواسط الحجاج" ويعود سبب تسميتها "بواسط" لأنها تقع متوسطة بين البصرة والكوفة. راجع معجم البلدان لياقوت الحموي 5/ 347

1- سورة البقرة آية 34

2- سورة البقرة آية 38: { قُلْنَا اهبطوا منها جميعاً فإما تاتيتنكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون }

3- انظر إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي 3/ 188، وكذا أورده الفخر الرازي في التفسير 3/ 214

4- الخبر خرج ابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان 65، وابن عساکر بسنده عن ابن عمر في تاريخ مدينة دمشق 62/ 258: 259، وابن الجوزي في تلبيس إبليس 41، ويدر الدين الشبلي في آكام المرجان 270: 271

5- الحديث رواه البخاري كتاب الأدب باب " ما يُنهَى عن النَّحَاسِدِ وَالنَّدَابِرِ وَقَوْلِهِ تَعَالَى { وَمَنْ شَرَّ حَامِدٍ إِذَا حَسَدَ } ج 5/ص 2253، وباب الهجرة وقول النبي ﷺ لا يَجِلُّ لِزُجَلٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ" ج 5/ص 2255 ومسلم" واللفظ له" كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم التحاسد والتباغض والتدابير

ج 4/ص 1983

يهود! .

وقد حذر النبي ﷺ أمته عن أن ينتقل إليها هذا الداء الذي هو داء الأمم قبلها وخاصة اليهود ومن ذلك ما أخرجه أحمد والترمذي واللفظ له من طريق يحيى بن أبي كثير عن يعيش بن الوليد أن مولى الزبير حدثه أن الزبير بن العوام حدثه أن النبي ﷺ قال: "دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ الْحَسَدُ وَالْبَغْضَاءُ هِيَ الْحَالِقَةُ لَا أَقُولُ تَخْلُقُ الشَّعْرَ وَلَكِنْ تَخْلُقُ الدِّينَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَفَلَا أُنبئُكُمْ بِمَا يُنْبئُ ذَاكُمْ لَكُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ" (49).

والمعنى: (سار إليكم داء الأمم قبلكم أي: عادة الأمم الماضية الحسد والبغضاء هي الحالقة حالقة الدين بكسر الدال لا حالقة الشعر أي الخصلة التي شأنها أن تخلق أي تهلك وتستأصل الدين كما يستأصل موسى الشعر) (50). وأخرج الحاكم في المستدرک من طريق أبي هانئ حميد بن هانئ الخولاني عن أبي سعيد الغفاري أنه قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "سيصيب أمتي داء الأمم فقالوا يا رسول الله وما داء الأمم قال: الأشر والبطر والتكاثر والتناجش في الدنيا والتباغض والتحاسد حتى يكون البغي" (51).

4- مدى ما يصيب الحاسد من فساد في دينه ودنياه !

يقول العلامة شمس الدين السفاريني: (الحسد يَصُرُّ الْحَاسِدَ فِي الدِّينِ وَالْدُنْيَا، أَمَا ضَرَرُهُ فِي الدِّينِ فَإِنَّ الْحَاسِدَ

قَدْ سَخِطَ قَضَاءَ اللَّهِ تَعَالَى فَكَّرَ نِعْمَتَهُ عَلَى عِبَادِهِ، وَهَذَا قَدَى (52) فِي بَصَرِ الْإِيمَانِ، وَيَكْفِيهِ أَنَّهُ شَارَكَ إِبْلِيسَ فِي الْحَسَدِ وَفَارَقَ الْأَنْبِيَاءَ فِي حُبِّهِمُ الْخَيْرَ لِكُلِّ أَحَدٍ. قلت: وقد مر قول السفاريني الحنبلي رحمه الله: أن الحاسد عدو نعم الله تعالى. فتأمل !!

(1) المسند 1/ 164، 167، وسنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع 4 / 664 وقال: " هذا حديثٌ قد اُخْتَلَفُوا فِي رِوَايَتِهِ عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ فَرَوَى بَعْضُهُمْ عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ عَنْ يَعِيشَ بْنِ الْوَلِيدِ عَنْ مَوْلَى الزُّبَيْرِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَمْ يَذْكُرُوا فِيهِ عَنِ الزُّبَيْرِ"، والحديث أورده الحافظ المنذري في الترغيب والترغيب 3/ 285، والهيتمي في المجمع 8/ 30 وقال: "رواه البزار وإسناده جيد" قلت: قال في مرقاة المفاتيح ج9/ص241: 242: "قوله ﷺ (دب) بفتح الدال المهمله وتشدید الموحدة أي: نقل وسرى ومشى بخفية، (إليكم داء الأمم قبلكم الحسد) أي: في الباطن، (والبغضاء) أي: العداوة في الظاهر ورفعها على أنهما بيان للداء أو بدل وسميا داء لأنهما داء القلب، و(هي) أي: البغضاء وهو أقرب مبنى ومعنى أو كل واحدة منهما (الخالقة) أي: القاطعة للمحبة والإلفة والصلة والجمعية والخصلة الأولى هي المؤدية إلى الثانية ولذا قدمت، (لا أقول تخلق الشعر) أي: تقطع ظاهر البدن فإنه أمر سهل، (ولكن تخلق الدين) وضرره عظيم في الدنيا والآخرة".

2- فيض القدير للمناوي 3/ 516

3- المستدرک على الصحيحين ج4/ص185 وقال الحاكم: " هذا حديث صحيح الإسناد" وأقره الحافظ الذهبي وقد أورد الحديث الهيتمي في مجمع الزوائد ج7/ص308 وقال: "رواه الطبراني في الأوسط 9/ 23 وفيه أبو سعيد الغفاري لم يرو عنه غير حميد بن هانئ وبقيه رجاله وثقوا" وأخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الحسد كما قال المناوي 4/ 126، ودم البغي 5، والعقوبات 174 وجوّد إسناده الحافظ العراقي كما في المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار 2/ 863 قلت: قوله (الأشر) أي: كفر النعمة، (والبطر) الطغيان عند النعمة وشدة المرح والفرح...، (والتكاثر) أي: من جمع المال، (والتشاحن) أي: التعادي والتحاقد في الدنيا والتباغض، (والتحاسد) أي: تمنى زوال نعمة الغير حتى يكون (البغي) أي: مجاوزة الحد وهو تحذير شديد من التنافس في الدنيا لأنها أساس الآفات ورأس الخطيئات وأصل الفتن وعنه تنشأ الشرور وفيه علم من أعلام النبوة فإنه إخبار عن غيب وقع. اهـ من فيض القدير للمناوي 4/ 125: 126

1- القذى: كما في تاج العروس ج39/ص279: "ما يَبَغُ فِي الْعَيْنِ وَمَا تَرْمِي بِهِ وَالْقَدَى فِي الشَّرَابِ: مَا يَبَغُ فِيهِ مِنْ دُبَابٍ أَوْ غَيْرِهِ" ويقال: قَذَيْتُ الْعَيْنَ قَذَى مِنْ تَابٍ تَعَبَ صَارَ فِيهَا الْوَسْخُ.

وفي هذا أيضاً يقول العلامة الحرالي⁽⁵³⁾: (الحسد-الذي هو قلق النفس من رؤية النعمة على الغير-: اعتراض على الحق، ومعادنة له، ومحاولة لنقض ما فعله وإزالة فضله عما أهله له)⁽⁵⁴⁾.

قال الشاعر: أيا حاسداً لي على نعمتي ... أتدري على من أسأت الأدب

أسأت على الله في حكمه ... لأنك لم ترض لي ما وهب

فأحزك ربي بأن زادني ... وسد عليك وجوه الطلب⁽⁵⁵⁾.

ثم قال السفاريني: ثُمَّ إِنَّ الْحَسَدَ يَحْمِلُ عَلَى إِطْلَاقِ اللَّسَانِ فِي الْمَحْسُودِ بِالشَّمِّ وَالتَّحْيِيلِ عَلَى أَدَاهُ. وَأَمَّا صَرَرُهُ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ الْحَاسِدَ يَتَأَلَّمُ وَلَا يَزَالُ فِي كَمَدٍ.

وَأَنْشُدُوا: دَعِ الْحَسُودَ وَمَا يَلْقَاهُ مِنْ كَمَدِهِ⁽⁵⁶⁾ ... كَفَاكَ مِنْهُ لَهَيْبُ النَّارِ فِي جَسَدِهِ

إِنْ لُمْتَ ذَا حَسَدٍ نَفْسَتْ كُرْبَتَهُ ... وَإِنْ سَكَّتْ فَقَدْ عَذَّبَتْهُ بِيَدِهِ⁽⁵⁷⁾.

وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ سَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا يَقُولُ: مَا رَأَيْتُ ظَالِمًا أَشْبَهَ بِمَظْلُومٍ مِنَ الْحَاسِدِ حُزْنَ لَازِمٍ

وَنَفْسٍ دَائِمٍ، وَعَقْلٌ هَائِمٌ، وَحَسْرَةٌ لَا تَنْقِضِي⁽⁵⁸⁾.

5- ومن آفات الحسد أنه يُذهب الحسنات

أخرج أبو داود في السنن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ أَوْ قَالَ الْعُشْبَ"⁽⁵⁹⁾.

2- أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسن الحرالي الأندلسي "أصله من حرالة من أعمال مرسية ببلاد الأندلس" أسبانيا حالياً" ولد ونشأ في مراكش، ورحل إلى المشرق وتوصف. وتوفي في حماة (بسورية) 638هـ" كذا قال الزركلي في الأعلام 4/ 256 وفي سير أعلام النبلاء للذهبي وكشف الظنون لحاجي خليفة أنه مات سنة سبع وثلاثين وستمائة وصنف في تفسير القرآن كتابه "مفتاح الباب المقفل على فهم القرآن المنزل" ترجم له الداودي في طبقات المفسرين 273 وكذا السيوطي أيضاً في طبقات المفسرين 76" يقول الحافظ الذهبي عن تفسير الحرالي في سير أعلام النبلاء ج23/ص47: (وعمل "أي الحرالي" تفسيراً عجيماً ملأه باحتمالات لا يحتمله الخطاب العربي أصلاً وتكلم في علم الحروف والأعداد)

3- فيض القدير للمناوي 3/ 25 وعزاه للحرالي

4- قلت: الأبيات في "المستطرف في كل فن مستظرف" ج1/ص459 في فصل الحسد دون نسبة، ونسبها أبو القاسم حسين بن محمد المعروف بالراغب

الأصبهاني في محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ج1/ص313 إلى منصور الفقيه (أبو الحسن التميمي الضرير الفقيه الشافعي الشاعر) واكتفى بذكر البيتان الأولان قال: ولمنصور الفقيه

أَلَا قُلْ لِمَنْ بَاتَ لِي حَابِداً

أَتَدْرِي عَلَى مَنْ أَسَأْتُ الْأَدَبَ

أَسَأْتُ عَلَى اللَّهِ فِي حُكْمِهِ

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْضَ لِي مَا وَهَبَ

1- قال في تاج العروس ج9/ص112: "الْكَمْدَةُ بِالضَّمِّ وَالْكَمْدُ بِالْفَتْحِ وَالْكَمْدُ بِالنَّحْرِكِ: تَغْيِيرُ اللَّوْنِ وَذَهَابُ صَفَائِهِ، وَالْكَمْدُ مُحَرَّكَةٌ "الْحُزْنُ الشَّدِيدُ لَا يُسْتَطَاعُ إِمْضَاؤُهُ" وفي الصحاح، والأساس "الْحُزْنُ الْمَكْتُومُ" وفي المحكم هو "أَشَدُّ الْحُزْنِ" وَالْكَمْدُ:

"مَرَضُ الْقَلْبِ مِنْهُ "أَي: مِنَ الْحُزْنِ الشَّدِيدِ... وَأَكْمَدَهُ الْحُزْنُ": غَمَّهُ فَهُوَ مَكْمُودٌ

2- البيتان كذا ذكرهما العلامة السفاريني في غذاء الألباب 3/ 255 ولم ينسبهما وكذا هما في جواهر الأدب 2/ 67 للأديب المصري القاهري أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي بدون نسبة

3- غذاء الألباب 2/ 223 قلت: قول الأصمعي ذكره الراغب الأصفهاني كتابه محاضرات الأدباء 1/ 312 ونسبه لسيدنا علي ابن أبي طالب رضي الله تعالى عنه والذي في الرسالة القشيرية وقد نسبه إلى عمر بن عبد العزيز قوله "ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد: غم دائم ونفس متتابع" وروى البيهقي في شعب الإيمان ج5/ ص 273 من طريق أبي بكر بن أبي الدنيا عن شيخ له عن آخر قال: قال الخليل بن أحمد: "ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من حاسد نفس دائم وعقل هائم وحزن لائم" وفي تفسير القرطبي 5/ 251 والعقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ج2/ص158 عن الحسن قال: "ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من حاسد: نفس دائم، وحزن لازم، وغم لا يُنْقَدُ".

4- سنن أبي داود ج4/ص276 كتاب الأدب باب في الحسد قلت: قال المناوي في فيض القدير ج3/ص125: هذا حديث رواه أبو داود في كتاب الأدب من حديث إبراهيم بن أسيد عن جده عن أبي هريرة وجد إبراهيم لم يسم وذكر البخاري إبراهيم هذا في تاريخه الكبير وذكر له هذا الحديث وقال: "لا يصح" وللحديث شاهد في سنن ابن ماجه كتاب الأدب باب في الحسد 2/ 1408 من حديث أس بن مالك مرفوعاً ولفظه "الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ"

6- علاج داء الحسد

ذكر شمس الدين السفاريني رحمه الله تعالى أن السبيل إلى مُعَالَجَةِ مرض الحسد: "تارة يكون بِالزُّهْدِ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَّهَا لَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، فَلَا وَجْهَ لِمُنَافَسَةِ فِيهَا عِنْدَ الْعُقَلَاءِ" "وتارة بِالرِّضَا بِالْقَضَاءِ".
قال: فإنك - أي: أيه العبد-: "إِنْ لَمْ تَرْضَ لَمْ تَحْضُلْ إِلَّا عَلَى النَّدَمِ وَفَوَاتِ النَّوَابِ، وَعَضَبِ رَبِّ الْأَرْبَابِ". وقال: "وَلَيْسَ لِلْعَاقِلِ حِيلَةٌ فِي دَفْعِ الْقَضَاءِ فَعَلَيْهِ بِالرِّضَا" (60).

قلت: اعلم رحماني الله وإياك: أن العبد لا يصح زهده في الدنيا إلا بالرضا! (61) ومتى رضي العبد بقضاء الله تعالى، ووقع بعطائه فلا يدخله بعون الله تعالى ومدده وعصمته حسد!

ومن هنا: فإن السبيل الناجع إلى علاج داء الحسد ليس إلا الرضا بقضاء الله تعالى وقدره!

وفقني الله تعالى وإياك لما يحب ربنا ويرضى! ؟

المطلب الثاني في جملة فوائد مستفادة من القصة

1- تسلية الرسول ﷺ والربط على قلبه

قد قلنا: ونحن نعيش مع أحداث القصة إن من وجوه اتصال ذكر خبر ابني آدم، وما كان من قتل أحدهما الآخر بدافع الحسد؟ إثر ذكر حسد اليهود النبي ﷺ حتى هموا بقتله مع صحابته:

التنبية على أن اليهود ظالمون باغون عادون شأنهم في ذلك شأن ابن آدم القاتل الظالم مع أخيه المقتول المظلوم ومن هنا يأتي التنويه: على أن همَّ اليهود بالفتك بسيدنا رسول الله ﷺ ليس بجديد عليهم فقد قتلوا الأنبياء قبله، وقتل قابيل هابيل، والشر قديم. ومن ثم فإن التذكير بهذه القصة مع ما له من بواعث ودوافع يأتي في مكانه من السورة! وفيه ما فيه: من التسلية لرسول الله ﷺ.

2- بيان أول من سنَّ جريمة القتل

وفي القصة بيان أول من سنَّ جريمة القتل وهو قابيل في قول جمهور أهل العلم بالتفسير والسير والأخبار

والتواريخ

وقال النبي ﷺ: "لَا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إِلَّا كَانَ عَلَى بَنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهَا لِأَنَّهُ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ" (62).

ويذكر النووي: (الكفل: بكسر الكاف الجزء والنصيب وقال الخليل: هو الضعف).

الْحَطَبُ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْحَطِيبَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ وَالصَّلَاةُ نُورُ الْمُؤْمِنِ وَالصِّيَامُ جُذَّةٌ مِنَ النَّارِ" قال البوصيري في مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه ج4/ص238: "هذا إسناد فيه عيسى بن أبي عيسى وهو ضعيف" وقال الحافظ العراقي في تخریج أحاديث وآثار الإحياء ج1/ص32: "هو عند ابن ماجه من حديث أنس بإسناد ضعيف وفي تاريخ بغداد 2/ 227 بإسناد حسن" قوله "إياكم والحسد" أي: في مال أو جاه دنوي فإنه مذموم بخلاف الغبطة في الأمر الأخرى" فإن الحسد "أي: باعتبار ما ينتج في حق المحسود من ارتكاب السيئات" يأكل الحسنات" أي: يفني ويذهب طاعات الحاسد" كما تأكل النار الحطب" لأن الحسد يفضي بصاحبه إلى اغتياب المحسود ونحوه فيذهب حسناته في عرض ذلك المحسود فيزيد المحسود نعمة على نعمة والحاسد حسرة على حسرة فهو كما قال تعالى " {خسر الدنيا والآخرة} وفي حاشية ابن القيم على سنن أبي داود ج13/ص168 قال في تعليقه على حديث أنس الذي عند ابن ماجه: "لما كان الحاسد يكره نعمة الله على عباده والمتصدق ينعم عليهم كانت صدقة هذا ونعمته تطفئ خطيئته وتذهبها وحسد هذا وكرهته نعمة الله على عباده تذهب حسناته"

1- انظر غذاء الألباب 2/ 222 باختصار وتصرف

2- قال الغزالي رحمه الله تعالى في إحياء علوم الدين ج4/ص69: (قال بعض العارفين: أهل الصبر على ثلاثة مقامات أولها: ترك الشهوة وهذه درجة التائبين. وثانيها: الرضا بالمقتور وهذه درجة الزاهدين. وثالثها: المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصديقين)

(1) رواه البخاري

وهذا الحديث: من قواعد الإسلام وهو أن "كل من ابتدع شيئاً من الشر كان عليه مثل وزر كل من اقتدى به في ذلك العمل مثل عمله إلى يوم القيامة" ومثله " من ابتدع شيئاً من الخير كان له مثل أجر كل من يعمل به إلى يوم القيامة" وهو موافق للحديث الصحيح " من سن سنة حسنة ومن سن سنة سيئة" وللحديث الصحيح " من دل على خير فله مثل أجر فاعله" وللحديث الصحيح "ما من داع يدعو إلى هدى وما من داع يدعو إلى ضلالة" والله أعلم (63).

3- مشروعية دفن ومواراة جسد الميت، وبيان كفيته، وأول أمره.

حيث تفيد أحداث القصة أن هابيل هو: أول إنسان يموت على الأرض، وأن أمر دفن الموتى لم يكن قد عرف بعد.

ولذا وكما حكى القرآن "أرسل الله غراباً إلى قابيل القاتل ليعلمه كيف يستر بالتراب جسد أخيه المقتول"؟ . وقد مرّ الكلام في ذلك بما فيه الغنية.

4- مشروعية التقرب إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة

اعلم أن المراد بقرب العبد من الرب جلّ وعزّ: القرب بالذكر والعمل الصالح يقال: تقرب لله بشيء أي: طلب به القربة عنده تعالى. (وقال الليث بن المظفر اللغوي: القربان "ما قربت إلى الله بتبغى بذلك قربةً ووسيلة". وفي الحديث: صفة هذه الأمة في التوراة "قربانهم دماؤهم" (64).

قال: والقربان مصدر قَرَبَ يَقْرُبُ أي: يَتَقَرَّبُونَ إلى الله بإِراقة دمائهم في الجهاد. وفي الحديث "الصلاة قُربان كلِّ تَقِيٍّ" (65). أي: إنَّ الأتقياء من الناس يَتَقَرَّبُونَ بها إلى الله تعالى أي: يَطْلُبُونَ القُربَ منه بها)

5- قبول الأعمال الصالحة يتوقف على الإخلاص فيها لله تعالى (66) .

يقول ابن عاشور في التفسير: وقد أفاد قول ابن آدم في الجواب "إنما يتقبل الله من المتقين": حصر القبول في أعمال المتقين فإذا كان المراد من المتقين معناه المعروف شرعاً المحكي بلفظه الدال عليه مراد ابن آدم كان

(2) 11/ 166 وراجع صحيح مسلم ج4/ص2059 كتاب العلم باب " من سنَّ سنةً حسنةً أو سيئةً ومَن دَعَا إلى هُدَى أو ضلالةٍ"، وسنن ابن ماجه ج1/ص74 باب " من سنَّ سنة حسنة أو سيئة"

(64) قلت: هذا جزء من حديث رواه الطبراني في المعجم الكبير من حديث عبد الله بن مسعود قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَفَتِي أَحْمَدُ الْمُتَوَكِّلُ، لَيْسَ بِعَظْمٍ وَلَا غَلِيظٍ، يَجْزِي بِالْحَسَنَةِ الْحَسَنَةَ، وَلَا يُكَافِي السَّيِّئَةَ، مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ وَمُهَاجَرُهُ طَيْبَةَ، وَأُمَّتُهُ الْحَمَادُونَ، يَأْتُرُونَ عَلَيَّ أَنْصَافِهِمْ، وَيُؤْصُونَ أَطْرَافَهُمْ، أَنَا جِبِلُّهُمْ فِي صُدُورِهِمْ، يَصُفُّونَ لِلصَّلَاةِ كَمَا يَصُفُّونَ لِلْقِتَالِ، قُرْبَانُهُمُ الَّذِي يَتَقَرَّبُونَ بِهِ إِلَيَّ دِمَائِهِمْ، رُهْبَانٌ بِاللَّيْلِ، لُيُوثٌ بِالنَّهَارِ» والحديث أورده الهيثمي في المجمع ج8/ص271 في صفة النبي ﷺ وقال: "رواه الطبراني وفيه من لم أعرفهم" وكذا عزا الحافظ الزيلعي في تخريج أحاديث وأثار تفسير الكشاف ج3/ص48 الحديث ثم قال: (وفي كتاب الردة للواقدي - قال - حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي ربيعة عن أبيه أن يهودياً من أهل سبأ يقال له نعمان وكان أعلم أحبار يهود قدم على النبي ﷺ فلما رآه آمن به وسأله عن أشياء وقال له إن أبي دفع إلي سفرأ مختوماً وقال لي لا تقرأه على يهود حتى تسمع بنبي قد خرج من يثرب فلما سمعت بك فتحته فإذا فيه صفتك كما أراك الساعة. وفيه: " ما يحل وما يحرم" وفيه: " أنه خير الأنبياء وأمه خير الأمم واسمه أحمد أمته الحمادون قربانهم دماؤهم وأناجيلهم صدورهم لا يحضرون قتالاً إلا وجبريل معهم تحنن الله عليهم كتحنن النسر على فراخه" قال: وكان النبي ﷺ يحب أن يسمع أصحابه حديثه) انتهى.

(2) الحديث رواه القضاعي في مسند الشهاب من حديث سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرفوعاً 1/ 181

وقال المناوي في فيض القدير ج4/ص247 (ورواه أبو يعلى عن جابر بلفظ" الصلاة قربان والصيام جنة والصدقة تطفي الخطيئة كما يطفى الماء النار") وقد ضعف الحديث الشيخ الألباني كما في السلسلة الضعيفة والموضوعة 310/8 حديث 3808، وصحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته 801 حديث

مفاد الحصر أن عمل غير المتقي لا يقبل؛ فيحتمل أن هذا كان شريعتهم ثم نسخ في الإسلام بقبول الحسنات من المؤمن وإن لم يكن متقياً في سائر أحواله؛ ويحتمل أن يراد بالمتقين المخلصون في العمل فيكون عدم القبول أمانة علة عدم الإخلاص وفيه إخراج لفظ التقوى عن المتعارف؛ ويحتمل أن يريد بالتقبل تقبلاً خاصاً وهو التقبل التام الدال عليه احتراق القربان فيكون على حد قوله تعالى (هدى للمتقين) أي هدى كاملاً لهم وقوله (والآخره عند ربك للمتقين) أي الآخره الكاملة ويحتمل أن يريد تقبل القربان خاصة؛ ويحتمل أن يراد للمتقين بالقربان أي المرئيين به تقوى الله وأن أخاه أراد بقربانه بأنه المباهاة ومعنى هذا الحصر أن الله لا يتقبل من غير المتقين وكان ذلك شرع زمانهم .

واعلم أن فقدان الإخلاص يمنع قبول الأعمال . يقول الأستاذ القشيري: (الإخلاص: أفراد الحق سبحانه في الطاعة بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله سبحانه دون أي شيء آخر؛ من تصنع لمخلوق أو اكتساب محمده عند الناس، أو محبة مدح من الخلق، أو معنى من المعاني سوى التقرب به إلى الله تعالى) (67).

ويذكر درزوة: (أن آيات القصة قد استهدفت فيما استهدفتها كما هو المتبادر بيان كون الله عز وجل الذي يعلم نوايا الناس في أعمالهم وسلوكهم إنما يتقبل من المتقين ذوي النوايا الحسنة والرغبات الصادقة ويشملهم برضائه) (68).

ولهذا كَانَ سيدنا ابن عمر يَقُول: "لَأَنَّ تَقْبَلَ لِي صَلَاةً وَاحِدَةً أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ جَمِيعِ الدُّنْيَا: لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾" (69).

وصل الله وسلم وبارك على نبينا وسيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين
والحمد لله في الأولى والآخرة

أهم مراجع البحث

- 1- أحكام القرآن لابن العربي المالكي
- 2- إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي
- 3- الأذكار ، للنووي
- 4- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، أبو السعود العمادي
- 5- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، الفيروز آبادي
- 6- تاج العروس ، للزبيدي
- 7- تفسير التحرير والتنوير ، الطاهر بن عاشور
- 8- التفسير الحديث ، محمد عزة دروة
- 9- تفسير السيد أحمد مصطفى المراغي

(1) أورده النووي في كتابه الأذكار ص6 وقال: "رويناه عن الأستاذ الإمام أبي القاسم القشيري"

(2) التفسير الحديث 98/9 بتصرف

(3) أورده الحافظ ابن حجر في فتح الباري 1/ 235

- 10- تفسير القرآن العظيم ، للحافظ ابن كثير
- 11- تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا
- 12- التفسير الوسيط ، محمد السيد طنطاوي
- 13- تفسير جامع البيان في تأويل آي القرآن ، للطبري
- 14- تفسير مفاتيح الغيب ، الفخر الرازي
- 15- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي
- 16- الدر المنثور ، لجلال الدين السيوطي
- 17- السلسلة الضعيفة والموضوعة للألباني
- 18- سنن ابن ماجة ، القزويني
- 19- سنن أبو داود
- 20- سنن الترمذي ، الإمام الترمذي
- 21- صحيح الإمام أبي عبد الله البخاري
- 22- صحيح الإمام مسلم بن الحجاج
- 23- العين ، للخليل بن أحمد الفراهيدي
- 24- فتح الباري ، الحافظ ابن حجر العسقلاني
- 25- فيض القدير ، للمناوي
- 26- القاموس المحيط ، الفيروزآبادي
- 27- لسان العرب لابن منظور
- 28- المستدرک على الصحيحين ، للحاكم النيسابوري
- 29- المسند للإمام أحمد بن حنبل
- 30- المعجزة الكبرى للقرآن ، لأبي زهرة
- 31- المعجم الكبير لأبي القاسم الطبراني